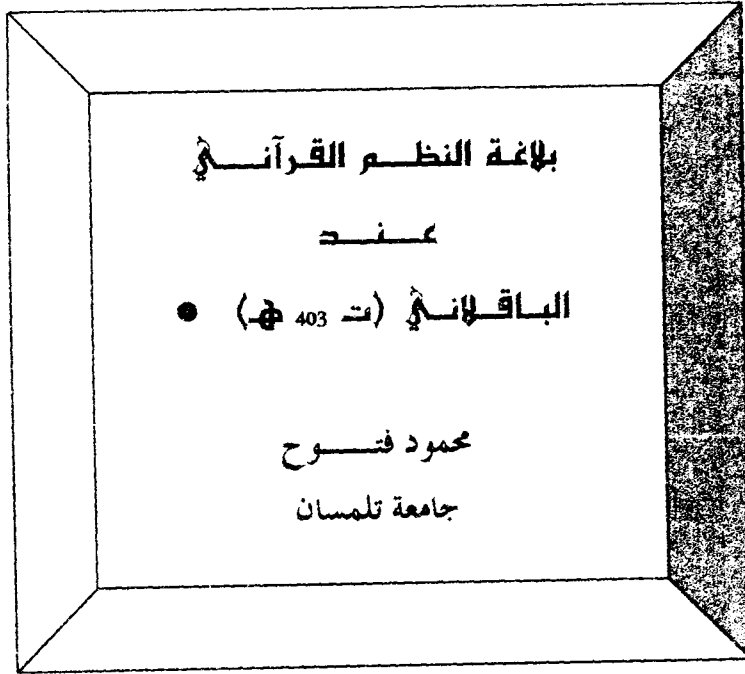




إن البحث في قضية إعجاز القرآن الكريم نواح كثيرة اتجه إليها المفسرون وعلماء البيان بتفصيل، فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها، ووضعوا أيديهم على جانب عظيم في حقائقها وهذا الجانب هو الذي يتعلق بالنظم الفريد والفصاحة الفذة الجارية على لسان البلغاء، ومتداولة على ما ينطق به العرب في لغتهم، وهي ميزة نُحِصت ببلاغته الفريدة، وألفاظه الفصيحة، ونظمه المحكم البديع، وتصويره الفريد الذي لم يوجد له مثال .

فمقولة النظام الخبيثة شجعت بعض الملاحدة وضعفاء العقول إلى الطعن في نظم القرآن الكريم، فنصدي لهم علماء الإسلام، وعملوا على تفنيد حججهم و دحضها، وكشف ظلالهم وافتراءاتهم، وقد قال ابن قتيبة (ت276هـ) في ذلك: "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ((ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله))¹ بأفهام كليله أبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبيله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف. وأدلو في ذلك بعللٍ ربما أملت الضعيف الغمّر، والحدث الغرّ واعترضت بالشبه القلوب، وقدحت الشكوك في الصدور"².

هذه الأمور وغيرها هي التي دعت الباقلائي إلى إفراغ كل جهده في رد هذه المطاعن في وجه الملاحدة، وإقراره بإثبات عروبة القرآن، وأنه جار على لسان العرب، وهو معجز بنظمه المحكم الذي لا طاقة للبشر به، وهذا الإحكام في نظمه هو "أن تقع كل كلمة منه موقعها اللائق بها، بحيث تكون كلماته متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض، فلا يمكنك أن تضع يدك على كلمة وتقول: ليت هذه الكلمة تقدمت على تلك الكلمة أو تأخرت عنها"³.

وفي الحقيقة نقول - كذلك - إن رأي النظام هو الذي "دفع علماء المسلمين على اختلاف مللهم ونحلهم إلى الخوض في مسائل تنصب على خصائص النظم القرآني لغة وتراكيب مما سيكون عظيم الفائدة بالنسبة إلى المباحث البلاغية، وسيخلف فحجا في التأليف يكون رافدا من روافدها الكبيرة، وليس من المبالغة في شيء أن نقول: إن الدراسات التي تحركت من هذا

المنطق العقائدي سيثمر عن أهم نظرية - بإجماع الباحثين - في تراثنا البلاغي: نظرية النظم⁴.

1- مفهوم النظم :

النظم مكون من حرف النون والطاء والميم أصل يدل على تأليف شيء وتكثيفه⁵، والنظم: التأليف، نظمه ينظمه نظماً، فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك⁶.

ومن هذا نجد أن معاني مصطلح النظم في اللغة تدور كلها حول معنى التأليف والاتساق والاتلاف والتضام والتناسب بين الأجزاء، وهذا يعني أنه في وعي اللغويين لا يخرج عن التأليف وضم الأشياء بعضها إلى بعض.

أما في الاصطلاح: "بمعنى سبك الألفاظ وضمها بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة كالجدول، لا تعثر ولا كلفة، ولا حوشي في اللفظ ولا زيادة ولا فضول⁷".

وهذا النظم اختص به القرآن الكريم وقد قال فيه ابن فارس (ت395هـ): "هو أن تجيء الكلمة إلى جنب الكلمة كأنها في الظاهر معها، وهي في الحقيقة غير متصلة بها"⁸.

وإذا كان مصطلح النظم من أبرز المصطلحات التي دار حولها النقاش في دائرة قضية الإعجاز واقتراحها باسم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في تحليله البياني للنظم القرآني - الذي استطاع أن يقدم نظرية في الأسلوب واضحة المعالم - فإن هذا المصطلح سبقه به نفر من العلماء المهتمين بقضية الإعجاز الذين سبقوه تاريخياً، عرضوا لهذه الفكرة

أو بالأحرى استعملوا هذا المصطلح في معرض حديثهم عن الإعجاز، وقد اعترف عبد القاهر بهذا الأمر صراحة فلم يدَّع أنه أول من التفت إلى النظم، وحدّد قيمته، بل نسمعه يقول: "وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل من عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ"⁹.

وهذه الفكرة قبل أن ترقى إلى نظرية، فقد كانت جذورها موغلة في القدم، وتطورت وازدهرت عندما توسعت الدراسات في قضية الإعجاز بخاصة في بيئة المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة بصفة خاصة.

وبحلول القرن الرابع للهجري تعددت المؤلفات التي تشير عناوينها إلى النظم والتأليف وصلتها بالإعجاز، وظهرت جميعها قبل عبد القاهر بما يزيد على قرن من الزمان، إلا أن معظم هذا التراث البلاغي الإعجازي عبث به الزمن، وضاع ضمن ما ضاعت ذخائر التراث العربي.

ومن المؤلفات الضائعة التي اتخذت اسم (نظم القرآن) عنوانا لها، والتي نجد كتب التراجم تذكرها ولا تكاد تقول شيئا عن محتواها، أولا : كتاب الجاحظ (ت255هـ)، الذي يُعدُّ أول مؤلف في النظم، وكتاب الحسن بن علي بن نصر الطوسي (ت308هـ)¹⁰، ثم كتاب لأبي بكر عبد الله بن أبي السجستاني (ت316هـ)، وكتاب لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت322هـ)¹¹. ثم كتاب لأحمد بن علي بن الإخشيد المعتزلي (ت326هـ)¹²، وتوالت المؤلفات بعد ذلك بهذا الاسم، مثل "كتاب أبي علي الجماحي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني، وكتاب الثعلبي"¹³.

أما الكتب التي جمعت عنونها بين الإعجاز والنظم، فيذكرون منها بالخصوص (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)، لمحمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ)، و رسالة الرماني (ت386هـ)، والخطابي (ت388هـ) و عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، والقاضي عبد الجبار (ت415هـ).

وبحلول القرن الخامس الهجري، أصبح هذا القرن عصر نضج المقاربة السابقة جميعا، وميدان ثرائها وثمره نتاجها التي صارت نظرية قائمة بذاتها، بحيث سيطرت هذه الفكرة على ذهن البلاغيين، وبالأخص علماء الإعجاز الذين حاولوا صياغتها في نظرية متماسكة، تقوم على نظام الارتباط والتماسك بين وحدات الجملة.

إن هذه الفكرة قبل أن ترقى إلى نظرية كان للأشاعرة دور كبير في إبرازها وتحديد معناها وكان الباقلاني من أوائل الذين أعطوا أهمية لهذا المصطلح وبعدها جديدا يخالف فيه من سبقوه، بحيث من يُمعن النظر في كلام الجاحظ (ت255هـ) والخطابي (ت388هـ) مثلا عن النظم القرآني، يجده كلاما عاما ومجملا.

فهل سيستطيع الباقلاني أن يصوغ « للنظم » مفهوما دقيقا يترادف مع مفهوم العلاقات والترابط بين الكلمات ؟ أم كان على مصطلح « النظم » الانتظار حتى مجيء عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ليصوغه في نظرية قائمة على أسس معاني النحو وإحكامه ؟

وإذا كانت نظرية النظم تعتمد على ثنائية اللفظ والمعنى، والالتحام الموجود بينهما، وإذا كان الأشاعرة يرون أن إعجاز القرآن في معانيه، وفي ترتيب ألفاظه بطريقة مخصوصة وتركيبها بما يتناسب وحال الخطاب وموضوعه، وأن مزية النظم في معانيه دون

ألفاظه، فهل سيستطيع الباقلاني الالتزام بمبادئ وأصول الأشاعرة في تفسيره لإعجاز القرآن، وفي تصوره لثنائية اللفظ والمعنى؟

2- النظم القرآني عند الباقلاني:

بلا شك لقد أفاد الباقلاني من الدراسات السابقة الذكر التي ارتضت «النظم» وجهها للإعجاز القرآني، واقتنع بهذا الرأي اقتناعاً تاماً، فعَدَّ أن إعجاز القرآن في نظمه خارج عن المعهود من كلام العرب، واتخذ أحد الوجوه، بقوله: "والوجه الثالث: أنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه"¹⁴.

وانطلق في تحديد تصوره لمفهوم «النظم» من مبادئ الأشعرية عامة، ومن أقوال وأراء أستاذه أبو الحسن الأشعري (ت324هـ) خاصة، فتَوَّه إلى مكانة هذا النظم الكريم، ومزيتة التي ينفرد بها بقوله: "واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عَصْمَة تفتن لما فيه، وهو أدق من السَّحَر وأهول من البحر، وأعجب من الشَّعْر"¹⁵.

فللأشاعرة موقف خاص في تحديد مفهومهم « للنظم »، الذين انطلقوا من أنه مركب من الكلام القديم القائم بذاته تعالى، ومن الحروف المنظومة، والأصوات المقطعة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى، ودلالات عليه وأمارة له، يقول الباقلاني: "فالكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس، لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة تكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان، وما اصطَلَحُوا عليه، وجرى عرفهم به، وجعل لغة

لهم، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ))¹⁶، فأخبر تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بلسان عبراني، فأفهم كلام الله القلم القائم بالنفس بالعبرانية، وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني، فأفهم قومه كلام الله القلم القائم بالنفس بكلامهم، فلغة العرب غير لغة العبرانية، ولغة السريانية غيرهما، لكن الكلام القلم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، وقد يدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين أهل كل خط فيقوم الخط في الدلالة مقام النطق باللسان¹⁷.

فالنظم حسب هذه العقيدة واقع في المعاني وترتيب الكلام في النفس، ولذلك وجه الأشاعرة عنايتهم للمعاني بحكم سبقها وأصالتها، أما الألفاظ فهي خادمة للمعاني وتابعة لها.

أما النظم عند الباقلاني منصب عنده على القرآن كله كوحدة وجملة لا تفصيلاً، كنص كامل له ميزاته تميزه عن كلام العرب وفنون إبداعهم، وينفي بذلك فكرة الإعجاز البلاغي، الذي يتعرض للتحليل الجزئي للعبارة ويُلح بإعجاز النظم القرآني بقوله: "ليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ومرتبة في الوجود، وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع الحركات إلى السماء، ووجود بعضها قبل بعض، ووجود بعضها بعد بعض، ولو كان ما سألتكم عنه يبطل مزية القرآن، وموضع الأعجوبة في نظمها، لوجب إبطال فضيلة الشاعر المفلح والخطيب المصقع والمرسل الفصيح المقتدر، حتى لا يكون على أحد تكلم باللسان العربي، وإن كان أعيا من باقل لسحبان وائل، وهذا أيضاً جهل ممن صار إليه، فبطل ما تعلقتم به"¹⁸.

من هذا النص نجد الباقلائي يفهم من النظم على أنه طريقة تأليف العبارة، وبناء نص متلاحم الأجزاء القائم على نظام العلاقات، وملائمة مواضعها التي وضعت فيه، فتكلم عن التقديم والتأخير وتتابع الحركات، إلا أنه لم يوسع فكرته على هذا النحو، ولم يشغل باله بها، وإنما انصب اهتمامه بالنظم الذي ربطه بالأسلوب، وصار به القرآن معجزاً، بقوله: "ونظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظر متخلص"¹⁹.

وهذا الوصف لمفهوم النظم غير كاف؛ لأنه لا يحدد ما يقصده بالنظم الذي صار به القرآن معجزاً تحديداً دقيقاً واضحاً، وإنما هو وصف يحمل يحجب المزية التي ينظر بها بعين خفية فبذلك تسجل عليه نقطة ضعف في ربطه بإعجاز القرآن دون تحديد مفهوم أو تفسير لهذا النظم، ويعطيه مضموناً ملموساً يتبين به أثره في بلاغة النص، فبذلك "لا يكفي أن تقولوا إنه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نَسْقِ الكَلِمِ بعضها على بعض، حتى تصفوها تلك الخصوصية، وتبينوها وتذكروا لها أمثلة"²⁰.

وعلى الرغم من كل هذا لا يمكن أن نُقلل من جهود الباقلائي في النظم القرآني؛ لأن مفهومه يكاد يقترب من مفهوم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في النظم القائم على نظام العلاقات وطريقة ضم الكلمات بعضها إلى بعض، إلا أن إغفال الباقلائي على هذه العلاقات وغياب الأساس اللغوي أو النحوي؛ هو الذي جعل جهوده لا ترقى إلى تأسيس نظرية في النظم تقوم على أسس نحوية — التي اكتملت فيما بعد على يد عبد القاهر الجرجاني —، وإنما شغل نفسه بأصول الفكر الأشعري.

فبذلك يكون الباقلائي "أحد مؤسسيها، وأحد أبرز العناصر الفعالة التي أُنشئت خطاباً نقدياً متميزاً، كشف فيه عن العناصر المكونة للنظم المتضمن للإعجاز، فالنص لا

يكون معجزاً بشكله ناقض العادة، بل هو معجز بنظمه²¹ البديع، وبتأليفه العجيب الذي لا يقدر على مثله الإنس ولا الجن .

هذا هو معنى النظم الذي كان يقصده الباقلاني، ولكن إذا كانت نظرية النظم قائمة على ثنائية اللفظ والمعنى، والالتحام الموجود بينهما لا انفصال فيهما، هل الباقلاني اهتم بجانب دون الآخر ؟ أم كان قد وفق بينهما ؟

3- النظم القرآني وعلاقته بشائية اللفظ والمعنى :

إن القضية نشأت أول ما نشأت في رحاب الدين في أوساط المتكلمين والفقهاء، وقد كان لها شأن في أوساط الأدباء والنقاد، وقد قصدنا إلى تناولها وتبيين علاقتها بالنظم قصداً، "لأنها ربما كانت نقطة البدء في التفكير في مشكلة «النظم» أو كانت قرين التطلع المستمر إلى فهم أعمق لهذه المشكلة الشائكة أو أقرب إلى ذلك"²². والباقلاني من بين هؤلاء العلماء الذين تناولوا قضية اللفظ والمعنى في منهج تحليله لسور القرآن وإبراز مزايا النظم من خلال هذه الشائكة.

وقبل ذلك تناول هذه القضية في الشعر العربي، ولاحظ المفارقة في الجودة في اختيار الألفاظ وحسن موقعها، وطريقة سبكها مع أخواتها وحسن تأدية معانيها، فاختار أبيات كثير عزة (40-105هـ)²³ التي كثر ثناء العلماء عليها، وعلق عليها باعتبارها

من الشعر الحسن الذي يخلو لفظه ومن الأبيات التي دار حولها النقاش في هذه القضية:

ولما قَضَيْنَا مِنْ مِئٍّ كُلِّ حَاجَةٍ	وَمَسَحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
وَشَدَّتْ عَلَى حُذْبِ الْمَهَارِيِّ رِحَالُنَا	وَلَا يَنْظُرُ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ يُنِنَا	وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

فعدّ نظم هذا الشاعر من الأبيات التي انصهر فيها اللفظ بالمعنى وأصبحت لحمه واحدة، وقد علق عليها بقوله: "هذه ألفاظ بديعة المطالع والمقاطع، حلوة المحاني والمواقع قليلة المعاني والفوائد"²⁴.

ولعل المتتبع في مؤلفاته يخطر بباله أنه متحمس بالمذهب الأشعري والمدافع عنه بشدة عن آرائه ومبادئه، وأن يجده ملتزماً بعقيدته الأشعرية في تناوله للعلاقة بين اللفظ والمعنى، والنظم والإعجاز، إلا أن هذه العقيدة ترى أن النظم هو ترتيب المعاني في النفس وترتيب الألفاظ في النطق، الأمر الذي أدّى بالباقلاني إلى تغيير وجهة نظره ناحية هذه الشائبة، ولم يتأثر بهذه العقيدة في هذه الفكرة، كما تأثر في نفي السجع والشعر عن القرآن، فالنظم عنده هو الرباط الخارجي الذي يلتزم التلاؤم بين اللفظ والمعنى، والتوافق بينهما، وذلك أن محصول البلاغة "الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى، وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام"²⁵.

وينطلق في بحث العلاقة بين هذين العنصرين واللحمة الرابطة بينهما، والانسجام القائم في تأدية المراد من تحديد وظيفة الكلام، بقوله: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مُستكره المطلع على الأذن، ولا مُستكره المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة"²⁶.

وهذا يلتقي "مع الرماني في عدّ اللغة وسيلة، وإذا لم يورد الباقلاني ما يوضح حقيقة فهمه للمعنى، عدا تلك الإشارة إلى المعاني التي تضمنها القرآن، وهي تتصف بالصحة وتوافق العقل والأخلاق مما تذكرنا بالخطابي، فإنه لم يوضح حقيقة فهمه للفظ

إيضاحاً كافياً أيضاً، فاللفظ العربي عنده فصيح بطبيعة اللغة العربية التي فضلت على غيرها²⁷، "لاعتدالها في الوضع، لذلك وضع أصلها على أكثرها هو بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها وأسقطوها من كلامهم، وجعلوا عامة لسانهم على الأعدل"²⁸.

وعليه: فإن المهارة في نظم الكلام وتأليفه عنده قائم على ثنائية اللفظ والمعنى على حدّ سواء، وإلى توافقهما وانسجامهما، فلا نجد نصاً صريحاً يدل على أنه فضل به اللفظ أو المعنى وإنما كان اهتمامه منصباً على إعطاء المزية لكلاهما لا تفاضل بينهما، فكلاهما من عناصر الأسلوب الذي تجمعهما وحدة عضوية داخل النظم.

أي: أن النظم عنده هو مراعاة التوافق بين الألفاظ ومعانيها، فتأتي المعاني معبرا عنها بالألفاظ تماثلها في الحسن، وتساويها في القدر والجودة، ويراعى فيها مقتضى الحال، يقول: "فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان أطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المكرر، والأمر المتقرر والمتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يتبدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم"²⁹.

فالبالغاني إذا من أنصار الصياغة اللفظية التي لا تُعطي للفظ مزية على المعنى، ولا للمعنى مزية على اللفظ، فكلاهما عنصر من عناصر الأسلوب، وأي فصل بينهما يعني "فصل الجسم عن الروح، والروح عن الجسم؛ وذلك لأن جمال الألفاظ في تعلقها بالمعاني، وحسن المعاني في وجودها في تركيب"³⁰.

وهذا يتضح لنا كمال الائتلاف والتلاؤم بين الألفاظ ومعانيها في النظم القرآني، الذي بهر العرب بحسن مبادئ الآي، والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، فالنظم عند الباقلائي هو الصورة التي يرى فيها الإعجاز، وهو مادة اللحام الجامعة للألفاظ مع المعاني داخل الآية أو العبارة.

4- الأسس الفنية والبيانية في بلاغة نظم القرآن:

إن من بين أهم الأسس التي اعتمدها الباقلائي في بيان إعجاز القرآن وبلاغة نظمه والتي وافق فيها المعتزلة أهمها:

أ- **تخيير الألفاظ:** وهو من أهم الأسس التي يقوم عليها رأي الباقلائي في إعجاز القرآن، وكان يرى أن اختيار الألفاظ ووضعها في المكان الواجب لها مما يعرف به إعجاز القرآن وقد كرر الحديث عن هذا المقياس في مواضع متعددة من كتابه، ومن ذلك ما ذهب إليه من أن "على المتكلم أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب للدلالة على المراد، وأوضح في الابانة على المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الآذان ومستنكر المورد على النفوس"³¹، كما ذهب إلى تعليل جمال اللغة العربية بالاعتدال في بنية ألفاظها.

ب- **قيمة اللفظة المفردة:** نوه الباقلائي بقيمة اللفظ المفرد، وجعله من المقاييس البلاغية التي تقاس بها فصاحة الكلام، ويدرك بها جانب من إعجاز القرآن، جعل هذا المقياس قانوناً عاماً، ثم طبقه على القرآن فقال: "وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده"³².

و أشاد بألفاظ قرآنية ونوه ببلاغتها عند تحليل بعض الآيات، فعند تحليل قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا"³³، قال: "وهذه الكلمة 'رُوحًا' بمفردها

وأخواتها، كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميزت عن جميعه وكانت واسطة عقده وغرة شهره وعين دهره³⁴. وكرر هذا الرأي مرات عديدة وفي مواضع متنوعة تكاد تكون مكررة.

وعلى كل فإن إيمان الباقلاني بأن للفظه المفردة قيمة بلاغية ثابتة لا تتغير بنقل كلمة من مكانها، بل تثبت لها في أي موضع وضعت فيه إيمانه بهذه الفكرة يجعله في تفكيره المتعلق بإعجاز القرآن قريباً من آراء المعتزلة مخالفاً لأساس من أهم الأسس النظرية الأشعرية كما رسم حدودها عبد القاهر الجرجاني من بعد³⁵.

ج- التلاؤم اللفظي: يظهر اهتمام الباقلاني بالتلاؤم اللفظي، واعتماده عليه في معرفة إعجاز القرآن في ما جاء من التنويه به في معرض مناقشته لما ورد في رسالة الرماني من وجوه البلاغة. فقد أخذ عليه أنه كان يرى الإعجاز في كل وجه من وجوه البلاغة التي أوردتها وأنه يقول مثلاً: "إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز وأن التحنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة". ثم قال الباقلاني: "فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإني لا أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه"³⁶.

لم ينكر الباقلاني ما جاء في رسالة الرماني جملة واحدة، بل عمد إلى وجوه البلاغة التي وردت فيها ينقدها، فرفض بعضها وقبل الآخر. ومن الوجوه التي رفض أن يتعلق بها الإعجاز: المبالغة والسجع والحنيس والتطبيق، ومن الوجوه التي قبلها وقبل أن يتعلق بها الإعجاز: تضمين المعاني والفواصل والاستعارة والايجاز البسيط والبيان.

خاتمة:

يمكن أن نخلص إلى نتيجة مدارها أن منهج الباقلاني في دراسة إعجاز القرآن، أنه كان من حيث الأصول الكلامية: أشعريا يسعى لنصرة مذهبه في إعجاز القرآن، ومن حيث التطبيق البياني وتحليل النظم القرآني: كان قريبا من المعتزلة، ولعلنا كذلك لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه كان يمثل مرحلة البحث عن نظرية أشعرية في النظم والإعجاز القرآني، والتي أسس قواعدها - فيما بعد - عبد القاهر الجرجاني.

الهوامش:

● مراجعة : أ.د. محمد عباس

- ¹ - سورة آل عمران، الآية 07 .
- ² - تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 1981م، ص 22.
- ³ - حسين محمد الخضر : بلاغة القرآن، اشرف على طبعه علي رضا التونسي، دط، 1971م، ص 07.
- ⁴ - حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط، 1981م، ص 38 .
- ⁵ - ابن فارس ابن زكريا الرازي أبي الحسين أحمد : معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م، مج 2، ج 2، ص 597 .
- ⁶ - الزمخشري : أساس البلاغة، قدم له وشكّله وشرح غريبه وعلق حواشيه محمود أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 1423هـ / 2003م، ص 860 .
- ⁷ - محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص 108 .

- 8- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومساثلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ / 1997م، ص 186 .
- 9- دلائل الإعجاز، ص 80 .
- 10- ينظر : حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب، ص 490 .
- 11- ينظر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : لسان الميزان، اعتنى به وشرحه عبد الفتاح أبو غُدّة، أخرجهم سليمان عبد الفتاح أبو غُدّة، مكتبة المطبوعان الإسلامية، ط1، 1423هـ / 2003م، ج1، ص 480 . والفهرست للنديم، ج3، 153 .
- 12- ينظر : الفهرست للنديم، ج2، ص 41
- 13- ينظر هامش : ابن القيم الجوزية : التبيان في إيمان القرآن، تحقيق عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت، ص 17 .
- 14- إعجاز القرآن، ص 35 .
- 15- نفسه، ص 184 .
- 16- سورة إبراهيم، الآية 40 .
- 17- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ص 101-102 .
- 18- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ص 91 .
- 19- إعجاز القرآن، ص 159 .
- 20- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 36 .
- 21- محمد تحريشي : النقد والإعجاز، ص 134 .
- 22- تامر سلوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سورية، ط1، 1983م، ص 118 .
- 23- ينظر: ملحق الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط1، 1971م، ص 525 .
- 24- إعجاز القرآن، ص 222 .

- ²⁵ - نفسه، ص 286 .
- ²⁶ - نفسه، ص 117 .
- ²⁷ - علي مهدي زيتون : إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد العربي من أول القرن الخامس / الحادي عشر إلى نهاية القرن السابع / الثالث عشر، دار المشرق، بيروت لبنان، ط 1، 1992م، ص 66 .
- ²⁸ - إعجاز القرآن، ص 118 .
- ²⁹ - نفسه، ص 42 .
- ³⁰ - عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 2006م، ص 24 .
- ³¹ - إعجاز القرآن، ص 117 .
- ³² - نفسه، ص 42 .
- ³³ - سورة الشورى، 52.
- ³⁴ - إعجاز القرآن، ص 187 .
- ³⁵ - للمزيد ينظر: أحمد أبو زيد: مقدمة في الأصول الفكرية للبلغة وإعجاز القرآن، دار الأمان الرباط، ط 1، 1989م، ص 92..
- ³⁶ - إعجاز القرآن، ص 276.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- المصادر:

أبي بكر الباقلائي:

- إعجاز القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1971.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، تحقيق محمد زاهد الحسن الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث ، الأزهر الشريف ، ط2 ، 2000.
- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 ، 2005.

2- المراجع:

- أحمد أبو زيد: مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، دار الأمان الرباط، ط1، 1989.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : لسان الميزان، اعتنى به وشرحه عبد الفتاح أبو غُدَّة، أخرجه سليمان عبد الفتاح أبو غُدَّة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط1، 1423هـ / 2003م.
- تامر سلوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سورية، ط1، 1983م.
- حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط، 1981م.
- حسين محمد الخضر : بلاغة القرآن، اشرف على طبعه علي رضا التونسي، دط، 1399هـ / 1971م.

- الزمخشري : أساس البلاغة، قدم له وشكّله وشرح غريبه وعلق حواشيه محمود أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 1423هـ / 2003م.
- عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1427هـ / 2006م.
- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تع محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، دار المدني بجدة السعودية، ط3 ، 1413هـ - 2003م.
- علي مهدي زيتون : إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد العربي من أول القرن الخامس / الحادي عشر إلى نهاية القرن السابع / الثالث عشر، دار المشرق، بيروت لبنان، ط1، 1992م.
- ابن فارس: -معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1420هـ / 1999م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ / 1997م.
- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 1403هـ / 1981م.
- ابن القيم الجوزية : التبيان في إيمان القرآن، تحقيق عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت.
- كثير عزة: ملحق الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط1، 1971.
- محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي، مكتبة الشباب ، المنيرة مصر، ط1، 1982م.
- محمد تحريشي : النقد والإعجاز، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا ، دط ، 2004م.